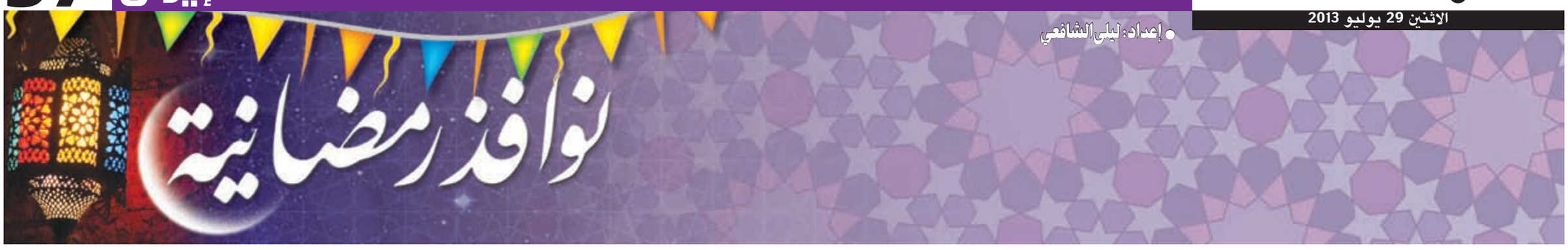

● إعداد: ليلى الشافعي

عودة إلى الله

توبة مذنب وصلاحه

سئل بعض الصالحين عن سبب توبته، فقال: كنت في حداثة سني لا اقف على زلة، فرأيت في بعض الايام جارية لم ار احسن منها وجها، ففتنت بها، فأشرت اليها، فلما صارت بالقرب مني ادركها جزع شديد، فقلت لها: لا تخافي، لا بأس عليك، فلم ينقص ذلك من خوفها شيئا، وجعلت ترعد كسعفة في يوم ريح، فقلت لها: اخبريني بخبرك، فقالت: والله يا اخي هذا موقف ما وقفته قبل يومي هذا قط، ولي ثلاث بنات، ولي ولهن ثلاثة ايام لم نستطعم فيها طعاما، فلما كان في هذا اليوم حملني الجوع والشفقة على ما ترى، قال: فعند ذلك رق لها قلبي، وسألتها عن مسكنها فأعلمتني به، فحملت اليها ما قدر الله عز وجل من دراهم وكسوة وقمح وغير ذلك، ثم عمدت الى ما في بيتي، فبعته ودفعته لوالدتي، واخبرتها بالقصة، وكان عندي سجل اثبت فيه سيئاتي، فقالت: يا ولدي انت رجل لم تعمل قط حسنة غير هذه، وعندك سجل تثبت فيه سيئاتك، فقم واثبت فيه هذه الحسنة، فقمت الى السجل وفتحته، فوجدته ابيض من اوله الى آخره وفي سطر واحد (ان الحسنات يذهبن السيئات).

فرفعت يدي الى السماء وقلت: وعزتك وجلالك لا عصيتك بعد يومي هذا ابدا.

الكفل التائب

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يحدث حديثا لو لم أسمعه الا مرة او مرتين حتى عد سبع مرات، ولكني سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل من بني اسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على ان يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال: ما يبكيك؟ أأكرهتك؟

قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه الا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا، وما فعلته قط؟ اذهبي فهي لك، وقال: والله لا اعطي الله بعدها أبدا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبا على بابه: ان الله قد غفر للكفل».

من التراث

يغلبن الكرام

روى الوافدي قال:دخلت يوما الى المهدي الخليفة العباسي فدعا بمحبرته ودفتره وكتب عني اشياء حدثته بها، ثم نهض وقال: كن مكانك حتى اعود اليك، ودخل الى دار الحرم، ثم خرج متنكرا ممتلئا غيظا، فلما جلس قلت: يا أمير المؤمنين خرجت علي خلاف الحال التي دخلت عليها؟

فقال: نعم دخلت على الخيزران (زوجة المهدي) فوثبت علي ومدت يدها الي وخرقت ثوبي وقلت:

يا قشاش.. واي خير رأيت منك

وانما اشتريتها من نخاس، ورأت مني ما رأت، وعقدت لابنيها ولاية العهد، ويحك فأنا قشاش؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «انهن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام، وقال خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، وقال:«وقد خلقت المرأة من ضلع اعوج ان قومته كسرته»، وحدثته في هذا الباب بكل ما حضرني، فسكن غضبه واسفر وجهه، وأمر لي بألفي دينار، وقال: اصلح بهذه من حالك وانصرفت. فلما وصلت الى منزلي وافاني رسول الخيزران فقال: تقرأ عليك ستي السلام، وتقول لك: يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به امير المؤمنين، فأحسن الله جزاءك وهذه ألفا دينار الا عشرة دنانير بعثت بها اليك لأني لم احب ان اساوي صلة امير المؤمنين، ووجهت إلي بأثواب.

الرجال مواقف

سعيد بن العاص.. كاتب القرآن ومعلمه

طفولته الغضة الباكرة ومخايل النجابة تلوح عليه ساطعة وهاجة، وامارات العبقرية تومئ الى ما ينتظره من غد موفق ومستقبل مشرق، فقد كان ذكاؤه اسبق من عمره وطموحه اوسع من حياته، وفكره انضج من لداته.

وكانت خطاه على طريق الاسلام قد بدأت بعد مفارقته المهد، رغم ان والده مات كافرا يوم بدر، قتله الامام علي بن ابي طالب ﷺ ورباه عثمان بن عفان ذو النورين فأدبه صغيرا بأدب الاسلام وسقاه من تعاليم الدين الحنيف ما جعله ينمو ويزدهر على حب الله ورسوله.

وكانت فطرة سعيد بن العاص نقية صافية فترعرعت فيها مثل الاسلام واينعت قيمه، سلوكا شريفا وشبابا عفيفا ومثالية رفيعة وشمائل زكية طاهرة.

ومع ان حبيبنا المصطفى ﷺ انتقل الى الرفيق الاعلى وسعيد بن العاص عمره تسع سنين فإن سعيد بن العاص حظي برؤية الرسول ﷺ وشرف بحضور مجلسه وسمع منه الحديث الشريف: «خياركم في الاسلام خياركم في الجاهلية» واكثر من هذا حظي سعيد بحب الرسول ﷺ له وتقديره اياه ولا ادل على ذلك مما قاله ابن عمر رضي الله عنهما ان امرأة جاءت الى الرسول ﷺ ببرد، فقالت: اني نذرت ان اعطي هذا الثوب اكرم العرب، وكان سعيد بن العاص في مجلس الرسول ﷺ، فقال لها النبي ﷺ: اعطيه هذا الغلام، واشار الى سعيد، ولذلك سميت الثياب السعيدية.

وقد ولد سعيد بن العاص في اعرق بيت من بيوت قريش، وكان جده يقال له ذو التاج، لانه كان اذا لبس العمامة لا يلبسها احد يومئذ اعظاما له، كما كان سعيد اشبه الناس لحية برسول الله ﷺ وقد اختاره عثمان ذو النورين ﷺ ضمن الاثني عشر رجلا الذين كانوا يكتبون القرآن ويعلمونه ومنهم ابي بن كعب وزيد بن ثابت. اما عن جوده وعطائه وسخائه ونداه فأمر يجل عن الوصف، بل يعيا به البيان، فقد كان كثيرا ما يجمع اصحابه كل يوم جمعة، ويقيم لهم الولائم ويهدي اليهم الحلل كما كان يرسل الى بيوتهم بالهدايا والتحف والبر الكثير، واذا نمي الى علمه ان ناسا اصابتهم الفاقة او اناخ عليهم الدهر بكلكله، يقوم بوضع نقود داخل صرر ويوزعها عليهم في اثناء وجودهم بالمسجد وبذلك يرفع عنهم عبء الفقر ويكفيهم مذلة الدين.

وبلغ به السخاء حدا ان دفع ثمن دار حتى لا يبيعها صاحبها ليسدد دينا عليه، ولهذه الواقعة حكاية طريفة فقد كان سعد بن العاص يسير يوما في احد شوارع المدينة فاذا به يشعر بالعطش فطلب ماء ليروي ظمأه فخرج له رجل وسقاه حتى ارتوى ومرت على ذلك فترة من الزمن ثم علم سعيد ان هذا الرجل يعرض داره للبيع، فسأل لماذا يبيع داره فقالوا: لانه مدين باربعة الاف دينار فبعث الى صاحب الدين قال له: المبلغ دين علي، وارسل الى صاحب الدار قضينا عنك الدين فاستمتع بدارك، وكان ثمن شربة الماء التي شربها سعيد بن العاص اربعة آلاف دينار.

ومع ما في هذه الواقعة من مغالاة على الجود ومبالغة في الكرم فان حياة سعيد بن العاص كانت كالمزنة الوطفاء تخصب حيوات الاخرين وتحيل الجو النفسي للمكروبين الى جو مفعم بالنسائم الرقيقة والعبير الفواح، بل انه كان يقدم من الهبات والعطايا المنح والجوائز مالا يتصوره انسان مغرق في الخيال، او موغل في التخيل تعالوا معا نستعرض هذه الواقعة ونضعها في موازين الكرم لنتعرف على اي نفس هذه التي جاوزت كل المقاييس والمعايير والاوزان.

كان رجل من القراء الذين يجالسون سعيد بن العاص قد اصابته فاقة شديدة فقالت له امراته ان اميرنا هذا يوصف بالكرم فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشيء، فقال لها ويحك لا تحلقي وجهي، فألحت عليه حتى ذهب الى سعيد ابن العاص وجلس اليه ولكنه لم ينبت ببنت شفة ولما انصرف الناس مكث الرجل جالسا في مكانه فقال له سعيد اظن جلوسك لحاجة، فسكت الرجل فقال سعيد لغلمانه انصرفوا ثم قال له: لم يبق غيري وغيرك وانتظر من الرجل ان يتكلم ولكنه ظل صامتا فأطفأ سعيد المصباح ثم قال له، رحمك الله لست ترى وجهي فانظر حاجتك ـ فقال الرجل: اصلح الله الامير اصابتنا فاقة وحاجة فاحببت ذكرها لك فاستحييت فقال له سعيد: اذا اصبحت فالق وكيلي فلانا.

انصرف الرجل شاكرا وفي الصباح ذهب الى وكيل سعيد، فابتدره الوكيل قائلا ان الامير قد امر لك بشيء فأت بمن يحمله معك، فقال الرجل ما عندي من يحمله ثم رجع الى امرأته ووجه لها لوما شديدا وقال حملتني على بذل وجهي للامير فقد امر لي بشيء يحتاج الى من يحمله، وما اراه امر لي الا بدقيق او طعام، ولو كان مالا لما احتاج الى من يحمله ولأعطانيه فقالت له امرأته مهما اعطاك فانه شيء يقوتنا فخذه.

رجع الرجل مرة ثانية الى الوكيل فوجد امامه مفاجأة اذ قال له الوكيل اني اخبرت الامير انه ليس عندك من يحمل عطاءه فأمر بان يذهب معك هؤلاء الثلاثة وقدم له ثلاثة غلمان من خدم الامير يحملون ما امر به الامير لك.

كان كل من الغلمان الثلاثة يحمل فوق رأسه عشرة الاف درهم ولما وصلوا الى منزل الرجل ووضعوا ما معهم طلب اليهم ان ينصرفوا فقالوا ان الامير قد اهدانا لك، فانه ما بعث مع خادم هدية الى احد الا كان الخادم الذي يحملها من جملتها.

وكما كان سعيد بن العاص جوادا معطاء، فانه كان يوصي اولاده بان يسيروا على نهجه في الجود والعطاء فقد كان يقول لكل منهم اجر معه المعروف ابتداء من غير مسألة. فاذا اتاك الرجل تكاد ترى دمه في وجهه، او جاءك مخاطرا لا يدري اتعطيه ام تمنعه، فوالله لو خرجت له عن جميع مالك ما كافأته، وكان يقول: لجليسي علي ثلاث: اذا دنا رحبت به، واذا جلس أوسعت له، واذا حدث اقبلت عليه، ومن وصاياه لأولاده ايضا: يا بني لا تمازح الشريف فيحتد عليك، ولا الدنيء فيجترئ عليك، انني لا استحي من الرفق في موطنين والتأني عندهما: مخاطبتي جاهلا او سفيها وسؤالي حاجة لنفسي. ومن رأيه في المال ان الانسان يجب ان يسعد به، فهو لا يدري ماذا تفعل به ورثته ولذلك كان يقول من رزقه الله رزقا حسنا فليكن اسعد الناس به، لانه سيتركه لاحد رجلين اما مصلح فيسعد بما جمعت له وتخيب انت، واما مفسد فلا يبقى له شيء.

وقد تولى سعيد بن العاص ولاية الكوفة سنة اربع وثلاثين ولكن اهلها كتبوا الى عثمان يسألونه ان يولي ابا موسى الاشعري فولاه مكان سعيد، وظل واليا عليها الى ان استشهد عثمان ﷺ ولما استشهد عثمان ﷺ لزم سعيد بيته فلم يشهد حروب الجمل وصفين.

فلما استقر الامر لمعاوية ولاه المدينة ثم عزله وولاها مروان ومن انجازات سعيد ابن العاص انه افتتح طبرستان وجرجان ولما نقض اهل اذربيجان العهد غزاهم وفتحها. وبهذه الشمائل الحميدة والاخلاق الفريدة عاش سعيد بن العاص 58 سنة وقد انجب عشرة من الولد ذكورا واناثا كانوا نماذج كريمة في الشهامة والفروسية والمروءة والسخاء، فقد صقلهم بتعاليم الاسلام وآدابه. وكان دائما يزودهم بما يجعل منهم رجالا ذوي فضل وفضائل وكان ميراثه لهم رصيدا دينيا وانسانيا يثري نفوسهم ويجمل حياتهم بالسمو والنبل. ولما حضرته الوفاة جمعهم ليلقي عليهم اخر وصاياه حتى يكونوا صلة كريمة له، ومن بين ما قال لهم: لا يفقدن اصحابي غير وجهي وصلوهم بما كنت اصلهم به وأجروا عليهم ما كنت اجري عليهم واكفوهم مأونة الطلب فإن الرجل اذا طلب الحاجة اضطربت اركانه وارتعدت فرائصه مخافة ان يرد فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعا لحاجته اعظم منه عليكم مما تعطونه ثم طلب اليهم ان يوفوا ما عليه من الدين والوعود والا يزوجوا اخواتهم الا من الاكفاء وان يسودوا اكبرهم لكي يحترمهم الناس.

ولما مات دفنوه بالبقيع وجاء معاوية وكان خليفة المسلمين ليعزي اولاده فسألهم هل ترك من دين عليه؟ فقالوا: نعم ثلاثمائة الف درهم فقال هي علي، فرفض اولاده وقالوا انه اوصانا الا تقضي دينه الا من ثمن اراضيه فاشترى منهم معاوية اراضي بمبلغ الدين ثم راح عمرو بن سعيد يسدد ما على ابيه حتى اعطى لكل ذي حق حقه.

روائع القصص

قصة الأعمى والأقرع والأبرص

عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، بدا له عز وجل أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها، وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا فقد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها، وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من غنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا، أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرا فأعطاك الله، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا صيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا صيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين، وابن سبيل، وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لهُ، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك.

ذنوب كبيرة

المكاس

وهو داخل في قوله تعالى (انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم)، والمكاس من اكبر اعوان الظلمة، بل هو من الظلمة انفسهم، فإنه يأخذ ما لا يستحق ويعطيه لمن لا يستحق، ولهذا قال النبي ﷺ: المكاس لا يدخل الجنة، وقال ﷺ: لا يدخل الجنة صاحب مكس، رواه ابو داود، وما ذاك الا لأنه يتقلد مظالم العباد، ومن اين للمكاس يوم القيامة ان يؤدي للناس ما اخذ منهم؟ انما يأخذون من حسناته ان كانت له حسنات، وهو داخل في قول النبي ﷺ: اتدرون من المفلس؟ قالوا: يا رسول الله المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: ان المفلس من امتي من يأتي بصلاة وزكاة وصيام وحج ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا، فيؤخذ لهذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه اخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار.

وجاء في الحديث عن المرأة التي طهرت نفسها بالرجم: «لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، او لقبلت منه»، والمكاس من فيه شبه من قاطع الطريق وهو من اللصوص، وجابي المكس وكاتبه وشاهده وآخذه من جندي وشيخ وصاحب راية شركاء في الوزر آكلون للسحت والحرام، وصح ان رسول الله ﷺ قال: لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت، النار اولى به، والسحت: كل حرام قبيح الذكر يلزم منه العار.

وذكره الواحدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى (قل لا يستوي الخبيث والطيب).

وعن جابر ان رجلا قال: يا رسول الله، ان الخمر كانت تجارتي واني قد جمعت من بيعها مالا، فهل ينفعني ذلك المال ان عملت فيه بطاعة الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ان انفقته في حج او جهاد او صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضة، ان الله لا يقبل الا الطيب، فأنزل الله تصديقا لقول رسول الله ﷺ: (قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث).

غزوات الرسول

غزوة بدر الكبرى

فرعون هذه الأمة

لقد هزم جند الله المشركين تحت شعار: أحد، أحد، وجعلوا اهدافهم رؤوس الكفر وهم يهتفون: يا منصور أمت أمت، وامر رسول الله ﷺ بأبي جهل ان يلتمس في القتلى، وكان اول من لقي أبا جهل معاذ بن عمرو بن الجموح.

يقول معاذ: سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة ـ الشجر الملتف ـ لقد كان وسط غابة من الرماح اقامها رجاله حوله وهم يقولون: ابو الحكم لا يخلص اليه، فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلما امكنني حملت عليه فضربته ضربة اطارت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي واجهضني ـ غلبني ـ القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي واني لاسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها.

ثم مر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء فضربه حتى اثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل فمر عبدالله بن مسعود بأبي جهل قال: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه وقد كان ضبت ـ أي قبض عليه ـ بي مرة بمكة فآذاني ولكزني ـ أي ضربني ـ ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟

قال: وبماذا اخزاني؟ اعمد من رجل قتلتموه ـ أي ليس علي عار فلن ابعد ان اكون رجلا قتله قومه ـ اخبرني لمن الدائرة اليوم؟

قلت: لله ولرسوله.

قال ابو جهل: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم.

ثم احتز ابن مسعود رأسه وجاء به الى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله هذا رأس عدو الله ابي جهل.

فقال رسول الله ﷺ : «الله الذي لا إله غيره؟».

قال ابن مسعود: والله الذي لا إله غيره، والقى رأس ابي جهل بين يدي رسول الله ﷺ. فحمد الله وسجد شكرا لله. وقال: «الله اكبر، الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده.. ان لكل امة فرعون، وان فرعون هذه الأمة أبو جهل».

وابو جهل فرعون هذه الامة أشد واغلظ من فراعنة سائر الامم اذ فرعون موسى حين ادركه الغرق قال: (آمنت إنه لا إله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل).

وفرعون هذه الامة ازداد عداوة وكفرا.

● بقلم سيد الرفاعي